إنما يرحم الله من عباده الرحماء

الرحمة كمال في الفطرة، وجمال في الخلق، إحساس في الضمير، وصفاء في الشعور، تهبُّ في الأزمات نسيمًا عليلاً، يرطِّب الحياة، ويُنعش الصدور، ويؤنس القلوب. الرحمة في أفقها الأعلى وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه، فإن رحمته شملت الوجود وعمت الملكوت. فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيء أشرق معه شعاع للرحمة الغامرة لذلك كان من صلاة الملائكة له: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: 7]. والإنسان الذي يرحم إخوانه من العباد ينال نصيبا من نوع الرحمة يقول النبي ﷺ: إنما يرحم الله من عباده الرحماء [صحيح البخاري].

وصف الملائكة الله تعالى في ثنائهم بقولهم: {ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما} بثلاث صفات: الربوبية والرحمة والعلم، والربوبية إشارة إلى الإيجاد والإبداع، والرحمة إشارة إلى أن جانب الخير والرحمة والإحسان راجح على جانب الضر، وأنه تعالى خلق الخلق للرحمة والخير، لا للإضرار والشر

الرحمة صفة الله – عز وجل – فهو الرحمن الرحيم، الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وسبقت رحمته غضبه، جعلها عهدًا منه، فقال: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: 54]، ورحمته تعالى شاملة كاملة، تفيض على المخلوقات وتسَعهم جميعًا، وبها يقوم وجودهم، وتقوم حياتهم؛ قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: 156].

وكثير من أسماء الله الحسنى ينبع من معاني الرحمة والكرم والفضل والعفو، فمن الكريم؟ الله، ومن الرحمن ؟ الله ، ومن القوي ؟ الله .. وقد جاء في الحديث القدسي (إن رحمتي تغلب غضبي). رواه مسلم.

وقد جعل الله الرحمة مائة جزء، وأنزل لنا في هذه الأرض رحمة واحدة نتراحم بها؛ كما ورد في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه قال: قال رسول الله -ﷺ-: ((جعلَ اللَّهُ الرّحْمةَ مِائةَ جُزءٍ، فَأَمسكَ عِندهُ تِسعَة وَتسعِينَ، وَأَنزلَ في الأَرض جُزءًا وَاحدًا، فمِنْ ذَلكَ الْجزءِ يَتَراحمُ الخلائِقُ حتى تَرفعُ الدَّابةُ حَافِرها عن ولدِها خشيةَ أن تصيبه))؛ رواه مسلم

وكلما كان العبد أرقَّ فؤادًا، وأعظم نفعًا لعباد الله، وأكمل إحسانًا في عبادة الله، كان نصيبه أعظم وأوفر من رحمة الله؛ ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: 56]، ومتى فتح الله أبواب رحمته، فلا ممسك لها، ومتى أمسكها فلا مرسل لها؛ ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: 2]، ورسول الله -ﷺ- أُرسل رحمة للعالمين؛ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107].

وسيرته ﷺ معطّرة بعَبق رحمته، تنشر شذاها وطيبها بما سكَب الله في قلبه من العلم والحلم، وفي خلقه من الإيناس والبر، وفي طبعه من اللين والرفق، وفي يده من السخاوة والندى، ما جعله أزكى عباد الله رحمة، وأوسعهم عاطفة، وأرحبهم صدرًا، أثنى عليه تعالى بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: 159].

ولقد لازَمته هذه الأخلاق العالية في أحلك الساعات، وأصعب الأوقات؛ في غزوة أحد، شج رأسه، وكسرت رباعيته.. وأراد أحد الأعداء اغتياله، فهنا غلب الرسول ﷺ الرفق والرحمة مع أعدائه، يتحمل أذاهم، ويرجو صلاحهم، وما كان دعاؤه إلا قوله: ((اللهم اهدِ قومي؛ فإنهم لا يعلمون)).

إن القلوب الكبيرة قلما تستجيشها دوافع القسوة فهي أبدأ إلى الصفح والعفو والحنان، وأدنى منها من الضغائن والكره.

إن القسوة في خلق المسلم دليل نقص كبير، وفي تاريخ أمة دليل فساد خطير .. فلا عجب إذ حذر الإسلام منها واعتبرها علة الفسق عن أمر الله وسر الشرود عن الصراط المستقيم يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: 16]

وكان -ﷺ- يرغب بالرحمة دائمًا، ويُعمِّقها في نفوس المسلمين والمسلمات، فعن عبدالله بن عمرو – رضي الله عنهما – أن رسول الله -ﷺ- قال: ((الراحمُونَ يَرحمُهم الرحمنُ، ارْحَموا مَنْ في الأرض يرحمْكُم من في السَّماءِ))؛ أخرجه الإمام الترمذي وصحَّحه.

وكان – عليه الصلاة والسلام – مثالاً فذًّا للرحمة الخالصة الشفافة، فقد قالت عائشة – رضي الله عنها -: جاء أعرابي إلى النبي -ﷺ- فقال: أتُقبِّلون الصبيان؟ فما نقبِّلهم، فقال رسول الله -ﷺ-: ((أَوَأَمْلِكُ لكَ أن نَزَعَ اللهُ الرحمةَ مِنْ قَلْبِكَ))؛ رواه البخاري.

فالمؤمنة أو المؤمن يتميز كل منهما بقلب مرهف، ليِّن رحيم، يلقى الناس جميعًا، فيرِقُّ للضعيف، ويتألم للحزين، ويحنو على المسكين، ويمدُّ يده للملهوف، موقنًا أن رحمة الله لا تناله إلا برحمة الناس؛ ((إنما يرحمُ اللهُ مِنْ عِباده الرحماءَ)).

والإسلام رسالة خير وسلام وعطف عل البشر كلهم وقد قال الله لرسوله: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

ومن آثار الرحمة في الإسلام:

رحمة الله بالضعفاء من النساء والأيتام والفقراء والمساكين

رحمة الله بالأطفال بالتربية والرعاية

رحمة الله بالشيوخ والهرمى والمرضى

رحمة الله بالخلق أجمعين

وفي ذلك قال النبي ﷺ: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا ويف لعلمائنا)أي حقه.

والرحمة في الإسلام لا تقتصر على البشر، بل تتجاوزه إلى نطاق الرحمة بالبهائم، فقد أخبرنا رسول الله -ﷺ- أن الجنة فُتحت أبوابها لامرأة بَغِي سقت كلبًا بخُفِّها، فغفر الله لها، وأن النار فتحت أبوابها لامرأة حبست هرة، فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت.

وعلى هذا النهج التربوي النبوي سار الصحابة الكرام، فكانوا أبرارًا رحماءَ، لا فُجارًا ألِدَّاء؛ ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: 29]، وأيُّ تراحُم بعد تراحمهم؟!